القص ورمزية
البحث عن المعنى

obeikandl.com

obeikandl.com

بعد قراءتنا لقصة (المد والجزر) نجد أنفسنا مباشرة نطرح هذه الأسئلة مع القصة. ما جدوى الجهد البشري العملي المكرر إذا كانت كل أفعال الحياة اليومية هي وسائل لغايات؟! والغايات بدورها وسائل لغايات أخرى؟! وتظل الدائرة الناقصة مفتوحة إلي ما لا نهاية. تجرنا من هم إلي هم، دون أن تقر الروح، ويهدأ الوجدان. ما جدوى امتلاك العالم كله وخسارة الروح؟! إن بطل قصة المد والجزر(السيد الهولندي) يضعنا في الحدث مباشرة حدث مرضه و إحساسه بالدوار فور وصوله إلي لندن. فقد فقد توازنه واحتواه الرهق (وكأنما هبطت كل طاقته الحيوية واستقرت في أخمص قدميه، وبدأت في الهروب منهما إلي الأرض المفروشة بالسجاد السميك) بهذا التصوير العفوى المباشر الخالى من الصورة والخيال والمكتنزبالإيحاء والرمز. يضعنا فليسار على ملمح هام من ملامحه الأسلوبية السردية، والمتمثل فى التعبير الحسى المباشر، المفعم بالإيحاء والرمز، وفى تصوير الكاتب للحالة الصحية للسيد الهولندي. يبني الكاتب حدث القصة القائمة علي ضمير الغائب الموهم بحقيقة ما حدث للبطل. والقصة تدور معظم أحداثها الصغيرة المتناثرة من خلال تيمة الحل والترحال عبر الأمكنة والأزمنة والكاتب يضفر سرده القصصي عبر التخيل والتجسيد معاً، أي عبر زمانية السرد وتطوراته، وآنية الوصف وإراءاته لحقيقة الحدث والشخصية معاً. ومن خلال التضافر

القصصي بين السرد والوصف وتطورانهما عبر البناء القصصي كله، يتنامى الحدث ليصل إلي قمة نأزمه عبر الوسائط المادية الفنية المتعددة. فترتسم ملامح الدلالة النهائية للقصة القائمة علي تجسيد فكرة البحث عن معنى حقيقي للحياة. يعلو علي جميع أشواقها المادية المتناهية. لتمتلئ الروح. أو تتملأ بالشوق للامتناهي. وهو الشيء الوحيد القادرعلي احتوائها وإنضارها.

فالسيد الهولندي في المشهد القصصي الثاني من القصة يعترف: (الطاقة ليست الدم ولا هي (الليمف) الطاقة هي النفس الذي يتردد في الصدر. لا بد أنها تهرب من مسام الجلد. وفقاً لقوانين حفظ الطاقة التي تعلمها في مدرسته الثانوية. لابد أنها الآن تدفئ الهواء البارد المحيط به. والذي صنعه لنفسه بطريقة حياته) الطاقة هي لطاقة الروح ونضارتها. وليس الإنسان مجرد واقعة بيولوجية وكفى. إنه مخلوق متكامل من الروح والخيال والجسد. وأي شرخ في هذا التكامل الحي الرهيف يصيبه بالتناثر والأذى. ويبدأ الكاتب في إنهاء حدثه من خلال هذا التداخل بين الأسود والأبيض. بقية من الليل تتداخل مع بقية من النهار. إن التوازن بين تناقض الطبيعة الكونية والطبيعة الإنسانية. ينذر بهذا القلق الذي بدأ في التخلق لدى بطل القصة: (كان ثمة مسحه من ظلمة ترتبط بنور النهار. وفي خضم رتابة المطر النازل الذي لم يتجاوز مجرد نقاط قلائل تشيع

الرطوبة في كل شيء وتنش الفساد، كان بوسع السيد أن يحس بشيء داخلي وليس مجرد توتر خارجي، شيء غامض صار جزءاً خبيثاً في روحه) إن هذا الانطباع الواحد من العطب الساري في بنية الطبيعة وبنية البطل يعمق من الحدث، حدث التوتر ومرض الروح، فليس المرض مرضاً جسدياً، بل الجسد هنا مظهراً من مظاهر الروح المعطوبة، و يوسع الكاتب من بنية الوصف ليهيئ المسرح القصصي المناسب يتجلى هذا فى اقتراب الطبيب من السيد الهولندي، وتأكده من أن مرضه ليس عضوياً، بل هو يحتاج إلي تغيير الجو، وليكن البحر، ودائماً نرى الكاتب " فليسار" يختار عناصره القصصية من المحيط المتحرك وليس الساكن، فدائماً أمكنته متحركة، فهي إما قطار أو سفينة أو سيارة أو بحر أو دراجة، وهذه الأماكن المتحركة تتطلب سارداً صاحب مخيلة فريدة قادرة علي الاستغراق في أعماق هذه الأمكنة، واستقصاء جوانبها جميعاً، ظاهرة وباطنة، بما ينبئ عن موقف الشخصية من العالم ويساعد علي تطوير الحدث القصصي، حتى ليبدو المكان هو الزمان نفسه، أو بنية القص ذاته، ولقد أكسب الترحال الكاتب قدرة خاصة علي اكتشاف ((جغرافيا الخيال الحركى المكاني)) فجعلته يقظاً في تكشف عناصر الثبات والحركة، الحيوية والجمود، وقد ساعد جميع ذلك علي السيطرة علي فضاء القص، بما يدفع الدلالة القصصية تجاه ذروتها، فالكاتب

يلحظ هذا الفارق الهائل بين مكانين أحدهما متحرك موار كالبحر مثلاً ومكان ثابت يكاد يلفظ أنفاسه تحت التحكم والنظام، وكلا المكانين يجلوان جوهر الأزمة التي تمر بها شخصية البطل في قصته (مد وجزر) يقول الكاتب: (فجأة اخترقت كلمتا الحرية والنضارة الباب بطريقة ما، ثم سمع كلمة البحر وتكررت الكلمة ثلاث مرات) وكان هذا الكلام علي لسان طبيبه الذي نصحه بالارتحال للبحر لتغيير ما به من سأم. ثم ينتقل الكاتب ليصور مكانه الأصلي الثابت بقوله: (لكن السيد المحترم يحي زيارة أماكن كان قد ارتادها عدة مرات. فهذا يعطيه الإحساس بأنه يتجول في ماضيه. انزعج أيضاً من صفتي (نظيفة ومنظمة) هذه النظمية الكئيبة التي فرضها الإنسان علي الطبيعة خوفاً من فوضاه الداخلية. يبدو أنه من السهل فرض نوع من المظهر المنظم علي الطبيعة أسهل من وضع الأشياء بشكل منظم في هذه المساحة الشاسعة التي تسمى نفسها(أنا) ربما يوحي وضوح الكاتب في إبراز أزمته بطلبة بأنه قد وضع أيدينا علي حقيقة الحدث. ولكنه وضوح مراوغ فدائماً الكاتب عبر جميع قصصه يضع أيدينا علي إضاءات مباشرة للحدث والأزمة، ولكن مع تتبعنا لتطور السرد القصصي نحس أن الوضوح كان مرحلة صغيرة تخفي خلفها عبر البناء الفني الشفاف أعماق أبعد مما كنا نظن، وفي الحقيقة هذه ميزة دقيقة يتمتع بها " فليسار" ميزة المراوغة

الفنية المعقدة. وربما وجدها آخرون لا تتلاءم وحرفية كتابة القصة القصيرة. ولكن متى كانت النظرية سابقة للإبداع؟ أليست النظريات الأدبية خلاصات أسلوبية لتجارب إبداعية ؟! ربما لو خرجنا قليلاً عن وهم الإطار النظري الأكاديمي الصارم- ربما نرى أعمق مما ترى النظريات في بنية الإبداع القصصي لدي فليسار"

وينتقل البطل كما نصحه طبيبه إلي الالتقاء بالبحر. ويدفع الكاتب ببطله إلي الخروج من أزمته عبر رموز قصصية كثيرة. أولها قيادة السيارة بما هي رمز للانطلاق ومحاولة التحرر مما هو فيه(فدائماً كانت القيادة تعطيه إحساساً بالقوة والضمان كان يجيد القيادة. وبسرعة وليس ببطء. ولكن دائماً في أمان وهو يعرف حدود قدراته وخبراته. في الواقع كان يتمتع بالقيادة أكثر من تمتعه بأي شيء آخر. دائماً ثمة جديد في الانتظار إن البطل في شوق إلي أن... يجد ما يملؤ روحه حتى ولو كان مجرد الانتظار لأي شيء جديد. وحتى لو كان هذا الجديد هو مجهول الطريق!!وانظر إ لى هذا المشهد القصصي علي لسان السارد لبطله: " أحياناً كان ينتابه إحساس بالندم لأن الطريق جد مستقيم. وكم كان سيرحب بانحناءة أو اثنتين محادعتين وخطرتين. مواقف تجبره علي إجراء مناورات مذهلة تفصح عن تمكنه من المقود) إن الكاتب دائماً يطور من أزمة بطله عن طريق وضعة في

سياقات سردية متعددة عبر أزمنة وأمكنة متغايرة. كانت تيمة السفر والارتحال هي المهيمنة عليها. ربما كان هذا التجوال المتكرر علامة القلق الضاغط، وربما كان الانتقال المتعدد من مكان إلي مكان دون وصول إلي راحة أو يقين تسلم له النفس قيادها- ربما كان ذلك تقليباً لوجوه الحياة كلها للوصول إلي أعماق شخصية البطل التي تزداد قلقاً وحيرة كلما ازدادت تنقلاً وحركة، ولا من علاج أو مقر، ويقدم الكاتب وصفاً مطولاً للحالة المادية والاجتماعية لبطله حيث يضعه في الدروة من استقرار أوضاعه الخارجية، وفي الدروة أيضاً من تمزق أوضاعه الداخلية، فبعد أن زار البطل عديداً من العواصم كما نصحه طبيبه، وكما أشارت عليه زوجته نراه (ليس هذا ما يبحثان عنه، وجدت زوجته البلدة مخيبة للآمال أيضاً كلاهما توقع شيئاً آخر، رغم أن كليهما لم يكن بوسعه أن يحدد ماذا بالضبط) إن التنقل عبر الأمكنة والأزمنة يوحي بقلق يعلو عليها، قلق أكبر من حدود الزمان والمكان، هل هو حاجة الروح الإنساني إلي التعالي كما يقول (إريك فردم) بصدد تعيينه للوضع الإنساني الصحيح نفسيا حيث: (الحاجة إلي التعالي تتصل اتصلاً وثيقاً بالحاجة إلي إقامة علاقة اجتماعية مع الآخرين، لأن الخيال والغفل يجعلان الوجود البيلي أو مجرد التواجد الفيزيقي للإنسان شيئاً بلا معنى، لهذا يحتاج الإنسان إلي التعالي علي دور الكائن العضوي، بأن يرتفع

فوق طبيعته السالبة بالإبداع، وعدم إشباع هذه الحاجة، يقابل الاغتراب عن الذات)(٣١).

فما هو هذا الإبداع الذي أشار إليه فروم – والواجب علي البطل تحقيقه للخروج من أزمته، الكاتب في القصة ينقل لنا حالة إنسانية عبر بنائه الجمالي، ولا يقدم لنا نظرية في علم النفس، وفي الفن مقولة شائعة وهي إذا أردت أن تقتل فاشرح، يكفي أن نذوق قصة " فليسار" عبر وسائطها الفنية، لنرى كيف تطورت الأحداث بالشخصية ، وكيف تطورت الشخصية بالأحداث، وفي أثناء تنقلات البطل المتعددة الأزمنة والأمكنة، ولا تشهد روحه الإنسانية أي تطور باتجاه شفائها إنها يذكرنا بشهريار المأزوم، ولكنه شهريار حضاري يعاني من اختلال معاصر، صنعته ظروفه الحضارية المعاصرة، والزوجة التي ترافق البطل في حله وترحاله ليست مثل شهرزاد التي استطاعت بخيالها الخلاق شفاء شهريار من ماديته المقيتة، ولكن الفارق البارز بين تعدد أسفار الهولندي السيد داخل المكان، وتعدد أسفار شهريار داخل الزمان- هو فكرة الخيال الباحث عن خلاص شهريار (فأبرز ما ينطوي عليه(ألف ليلة وليلة) يتلخص في فكرة مؤداها أن أولى وظائف الخيال هي استرداد العقل الضائع أو تصحيح الباطن المختل، فقد جاءت

ألف ليلة وليلة لتكون بمثابة إنسياج يندفع في الأمداء الحرة أو المترامية الأطراف إلي حد الدهشة)(٣٢)

و" فليسار" أيضاً يدفع ببطله من جزيرة إلي جزيرة، ومن شاطئ إلي شاطئ، باحثاً عن شيء مفقود ، لكنه لا يجده حتى في قلب الهدوء (لكن في قلب هذا الهدوء المهيمن، أحس السيد المحترم بنوع جديد من الانقباض في صدره، مازال يشعر بالقلق) إن بداية التحول العميق في بنية الحدث القصصي وجوهر الشخصية يبدآن من هذا المشهد القصصي بالتحديد وهو تأمل البطل لظاهرة المد والجزر في البحر بما يذكرنا بعنوان القصة يتضح ذلك في قول الكاتب (عندما وصلا للسبارة وجدا ماء البحر يكاد يلامس إطاراتها، لقد عاد المد. فكر السيد المحترم، ياله من أمر بديع، يذهب ثم يعود، يروح ويجئ، ياله من شيء بديع) ثم يعقب الكاتب مباشرة بعد هذا المشهد بقوله استكمالاً لما سبق (ثم استمرا في طريقهما...) ربما يكمن في رمزية المد والجزر سر قلق الهولندي المحترم، فهل ذهاب الموج وعوده ، رواحه ومجيئه رمز علي الحركة والتنقل والتغير علي عكس الروح السجينة الثابتة؟! أم نلتمس جوهر أزمة البطل في هذا التناقض بين انفتاح الطبيعة وتعددها وتغايرها من جهة، وانغلاق الذات في شبكة علاقات يومية قائمة علي الاستهلاك وقيود المادة من جهة ثانية؟!! فقد عرفنا من قبل تصوير الكاتب

للأوضاع المادية والاجتماعية المستقرة للبطل، وعرفنا أيضاً علي طول القصة أن البطل يعاني من القلق والاختناق، ولكن مرضه ليس عضوياً، ودفع الكاتب ببطله عبر أمكنة وأزمنة متعددة، علها تكون له شفاء، ولكن المرض خبيث ينغل في أعماق الروح، إذاً نستطيع من خلال تأمل البطل لحركتي المد والجزر في أعماق البحر أن نمسك ببداية الحل لأزمة البطل أو بداية التجسيد للدلالة الكلية للقصة، ولكننا لن نستطيع الوصول للدلالة الكلية لقصة " فليسار" إلا بعد قراءة القصة كلها فهي أشبه بالروح التي حلت الجسد كله، أو قل إن الجسد القصصي الشكلي هو شكل هدد الروح المتجلين عبر جميع وسائطه الجمالية

ترى هل كان البطل سائحا جوالا على عكس الاتجاه الصحيح لوجوده؟؟ فإذا وقفنا أمام مشاهدة البطل المتعددة لحركتى المد والجزر رسا عمقنا من دلالته الرمزية (خليج جميل، بط لطيف، وحتى بعض التم، والأهم الهدوء، والمد المد الجميل الذي يأتي حاملاً معه ماء الحياة المزبد، طلت الزوجة علي ضفتها) هنا يتخلق المد والجزر في صورة ثانية أكثر تطوراً من الصورة الأولى، فقد جاء في المشهد السابق منطلقاً بديعاً للتأمل، ولكنه في هذا المشهد يتطور الرمز لأبعاد أعمق فيأتي في صورة شعرية دالة علي الحركة (ماء الحياة المزبد) وعلينا أن نقارن حركية الصورة وتدفقها المكاني

والزماني معاً بجمود الزمان المكان عبر جميع الأمكنة والأزمنة السابقة الخاوية الطاردة للبطل في لندن حتى وصولنا معه، إلي هذه الصورة القصصية الدالة علي تطور عميق في اتجاه الحدث والشخصية، كل ذلك يجعل من قولنا السابق بأن وضوح " فليسار" في تعيين أزمة البطل بصورة تقريرية كان خداعاً عميقاً، وإن كان حقيقة صادقة في بداية القصة، إنه يوجهنا بتداخله المباشر إلي أزمة بطله ولكنه لا يعينها، فهو يدلك علي الطريق، ولكن عليك أنت أن تقطعه وحدك بوجدانك الخاص، وهذه درجة فنية عالية من الإيهام والإحكام القصصي لدي الكاتب.

وبعد أن يتأمل البطل حركية المد والجزر الدافقة ينتقل من مكان إلي مكان بلا فائدة، وازداد عليه التعب وفجأة وجد نفسه قد قرر الذهاب إلي الشاطئ (بوشام) الذي غطاه المد (ومضى السيد نحو البحر وخاض فيه، مرت فكرة أنه ينبغي عليه أن يخلع نعليه ويرفع بنطاله .... لكن الأمر قد تأخر فقد وصل الماءُ إلي حاصرته ، كان يحس باندفاع الموج، وكانت الأمواج تلطمه من كل جانب، أخذ عدة خطوات أخرى فوصل الماء إلي عنقه، صارت اللطمات الآن ملحية، والماء يندفع داخل فمه وأذنيه ومنخاريه، وعندئذ جرؤ علي مصارحة نفسه بأنه كان دائماً يخشى البحر وقوة أمواجه الغشوم والمد والجزر)

لقد شب الحدث القصصي عن الطوق، واستنارت الأزمة، لقد واجه السيد الهولندي(المرهق – المختنق- مريض الروح- القلق) واجه الحقيقة الغائبة في حياته، لقد اكتشف بأنه كان دائماً يخشى البحر الذي أتى هنا رمزاً للحرية والطلاقة، ورمزاً علي الانسياح بتلقائية في موجة الحياة الطليقة دون تكبيلها، أو حتى مجرد تحيدها بنظام محدد كئيب، إنه تعلم أن يتنقل من النقل إلي الخفة، ومن القيود إلي الانسيابية . من النظام الكئيب المحسوب، إلي الفوضى الخلاقة المنظمة من داخل الروح نفسها، إن حركة المد والجزر هي نفسها حركة (النفس) و(التنفس) أو هما نبض التنفس للبحر- رمز الحياة، وهو يذكرنا بقول البطل في بداية قصته عندما شرح معاناته وقلقه بأن (الطاقة ليست في الدم، ولا هي الليمف، الطاقة هي النفس الذي يتردد في الصدر) هل كان عنوان القصة (المد والجزر) هو هذا النفس الحي؟ هذا القبض والبسط الوجودى الحركى لبناء القصة من جهة وحياة البطل من جهة ثانية؟؟ فالعنوان هنا رمز تعييني لدلالة القصة كلها، حيث تكمن حقيقتنا الإنسانية الأصيلة في الانسجام الحي الطليق مع إيقاع بحر الحياة نفسه، فالحياة الفطرية الطليقة قادرة بمفردها علي أن تحلق شروط حريتها، وليس النظام العقلي البارد المفروض عليها من خارجها، كما

ردد البطل مراراً بأنه (ينزعج من صفتي نحليفة ومنظمة، هذه النظامية الكئيبة التي فرضها الإنسان علي الطبيعة).

لقد نظم الإنسان الطبيعة من حوله وألقي عليها أثقال عقله فكبلها، وكبل معها الروح أوالأنا الخاصة به، هل ثمة تفكك وانشراخ في سلم القيم الحضارية المعاصرة التي تكنف الإنسان بين ظهرانيها؟! وتصوغه علي منوالها المختل؟.؟. نعم ربما كانت هذه دلالة القصة أو قل بعض دلالاتها. فالقصة لدى فليسار متل (الكريستال المشع) في كل اتجاه .ولكن الدلالة الغالبة علي معظم الدلالات الأخرى هي ما المحنا إليه هنا . وقد استطاع " " فليسار" في هذه القصة أن يطلعنا بعمق علي ديناميانا النفسية بما يؤهلنا للاندماج العاطفي العميق بأرواحنا وروح الكون كله من حولنا . فكل اتساق علامة صحة، وكل تخلخل وتنافر علامة مرض، والفن يعلمنا كيف ننتشي بالتحامنا بوجودنا الكلي غير مفكك، بما يؤهلنا للالتقاء بماهية الأشياء، ومهما أمدنا العلم المعاصر بحقائق العالم الخارجي في صور العلم التحليقي التكنولوجي، سيظل العلم مفتقراً إلي هذه المعرفة الخاصة جداً التي يقدمها الفن وحده، فهو الحدس النافذ إلي عالمنا الداخلي وفضاءات أعماقنا السحيقة.